وجوه من الشرق

قلق الحدود[1] في شعر فوزي معلوف

خواطر في الشعر

بقلم ميشال حايك

« مقلتاه ترتمي الثراب واخرى
في السها وهو ساهر حيرانا
ابدًا يطلب انتكاطًا من الارض
ويسمي مكبلًا حسرانا
والثرى مسكنٌ به ابدَ
العمر الى ان يضمه جثمانا »

(صلاح لبكي)

وضمسك يا شاعر الشباب الغير القانع بمعطيات الوجود البخيل عرانس صنعتها من الحلم المجسد في ليلة قمراء من ليالي « عروس البقاع » . وكأن صوتك الآتي من وراء بحرنا الابيض كنفوسنا ، الازرق كاحلامنا ، كأن صوتك الاتي من بعيد المنفى يرجع صدى جبابرة قدما ، راحوا كلٌ على خشبة من الارز العنيد ، وكل خشبة على موجة عنيفة ، راحوا « يفلون في البحار الكنوز » و «يمرحون على جسر بحر اكسين على رحمة الرياح النواهم[2] » كما قال مواطنك

اولئك الجبابرة كان قلقهم شبيهاً بقلقك وحلمهم بالوسيع وسيعاً كحلمك — اولئك الذين شردتهم البحار في سرحة الافاق القصيّة كانوا جدودًا لكَ يا من اغتربت وشردتَ في الاعالي ، تصارع رخوة الجسم الترابي لتنهض به على سلم

1) Impatience des limites.

٢) سعيد عقل : قدموس

الماء – واذا بالطيور تتأمل حولك جماعات تبغي اقتراسك والنجوم تتهامس حائرات مستطلعات اخبارك . واخيراً تجتمع بروحك العارية الحرّة قبل الاوان فتجلسان معاً على بساط من السحائب الندية تتناجيان :

« ووقفنا معاً بقلب السماء
تتملى
من القُبَل !
.. احبّ الماء بعد التنائي
فهو اشعى
من الامل ! »

انت وروحك حبيبان غريبان، انت عبد في التراب تذيب ايامك في سجن الجسم الفاني ، وهي حرة في الجوّ البعيد وراء مبيت الشماعات الزرق .. وكانت ليلة حلم مجنون اجتمعت فيها بروحك بضع دقائق هربت سريعاً ككل احلامنا الهاربات :

« تلك بضع من الدقائق مرّت
في خضم
من الخلود
هي مثل الاحلام زارت وفرّت
اي حلم
ترى يعود ؟ »

واذا انت على الارض بعد الاستفاقة من غيبوبتك الكبرى ، ترجع لتقاسي مرارة السجن واسر الحدود :

« واذا بي اهوي الى الارض وحدي بعد حرّيتي اكابد رقا
تركتني روحي وعادت لأواها تشق انشاع في الجوّ شقاً »

ولكن لن يطول عليك فراق اشتقته فستجتمع بها بعد سنوات قلائل عندما تنفض عنك وحول وادينا المكتئبة ، ولن يعكّر ذلك الاجتماع عليكما لا ضجة ولا لجاجة قلب جزعان . اما الان ، بعد ان هويتَ من شاهق حلمك فانت في وحشة مرة لا تجد فيها من الساوى غير يراع ينتحب ومحجر يتزى الدمع منه اسود فيسيل حبر على طرس :

« فرأيتُ البراع قربي يواسيني ويبكي لما لقيت والقى . . .
يا براعي وانت خير صديقٍ لي منذ امترجتَ لي وعتقي
كم حبيبٍ سلا وعهدك باقٍ فهو اوفى من كل عهدٍ وابقى
رب دمعٍ كفكفته من عيوني سال حمرًا في الطرس يخفق خفقا »

كذا تبعثرت احلامك وتذرّت كسراب من النحل تتطاير عن قفائر ، بعد ان غمرتك بشفق مورّد يغري بالتعلة الكاذبة :

« عمرته الاحلام بالشفق الورديّ يغريه بالمنى تضليلا
وتلاشت حلمًا فحلمًا الى اللانهي تشبي به قلبًا قلبلا »

وماذا بقي لك بعد ذاك ؟ لا شيء سوى حفرة باردة خمدت في جوانبها اشواقك التي لا تُحصى ولا تُجمع :

« وتوارى بقوده . . . الداء الى القبر في ربيع شبابه »

وهناك ، ابعد من مرمى عينيك ، في لبنان ، في النفاقة غصن على شجرة ، سكت طائرٌ على عجزٍ خرساء متسردة لانه احسّ بشيء من جمال الوجود يتألم عن الوجود ، والوت زهرةٌ بيضاء عنقها الذي ما عانق غير نغر النسيم المذريّ ، واستولى عليها النعاس قليلًا قليلًا فأغفت وما استفاقت لان شيئًا من الندى تبخّر وتلاشى !

يومذاك كنت تغمض عينيك في البرازيل وكان الفراغ يتّسع في لبنان . . .

*

خلع فوزي معلوف مقلتين جديدتين على الحياة فوجدها مصفرّة شاحبة الالوان . كذلك يجدها كل من يغور الى اعماقها ولا يتوقّف على بروق لامعة وخيالاتٍ عابرة تطلّ بين الفينة والفينة على جفون الناس فيُخدعون . لقد علم انّ كلّ ما نهاية له قصير الامد ولو طال ، وان الوجود ما يعطي الّا ليمنع ولا يُسعد الّا ليُشقي . لقد ادرك ان الانسان ، وهو تلك الجذوة التي لا تشتعل الّا اذا تطاولت لهبتها الى فوق ، وجد الانسان ينطفئ في اوجار ظلمةٍ عميقة القرار ، كفانوس يشحّ زيته ، فاراد ان يعيش في مأمنٍ من عصوف الفناء ، اراد التخلص من كل ما يحول دون الخلاص — ولذلك فقد حنّ الى الفوق ، فوق كل دعوات التراب ، فوق كل هموم الثرى ، فوق كل المطامع المكبّلة ،

فوق كل المستلكات تلك التي تفترس متلكها كما قال الفيلسوف الفرنسي غبريل مارسل (Gabriel Marcel) . واذا به يطلب جناحين يعلو بهما وكانت تلك « الرحلة على بساط الريح » :

« فوق طيّادةٍ على صوات الريح راحت تروّض المستحيلا
هي طير من الحاد كأن الجنّ في صدرها تحتّ خيولا
حمحمت تضرب الرياح بنعليها فشنّت الى السماء سيلا .
ثم مدّت الى النجوم جناحين وجرّت على السحاب ذيولا . . . »

هكذا روّض الشاعر التراب الثقيل وعلا به ولكنّ سقطته على الحضيض كانت مريرة بعد سكرة الارتفاع — وهكذا تبعثر الحلم الكبير كالدخان في ليلة ريح شمال ، وما بقي من آثار الشعلة غير كومة رماد .

كان حلم فوزي معلوف ارحب من ان يحمله التراب وشوقه الى المجهول اقسى من ان يسمح له بالبقاء طويلاً بيننا . وما ترك من الاثار غير القليل الضئيل ممّا كان في نفسه العظيمة ، وما ذاك الّا لأن قصة الانسان الحقيقية لا تحشر بكلمات ولا تستطيع الاوزان ان تتحمّل فواجعها ، لأن الحروف تحترق ان لامست لهبة النفوس ، والحروف لا تلتقط الا رمادًا وذرات من السعير الداخلي المتأجج . كل شعور يتجسم في حرف يفنى . ولن يستطيع شاعر ان يعبّر عن شوقه ، ولذلك فهو يكتب قصيدةً وراء اخرى وتنقضي حياته في محاولة حظّها الإخفاق في كل آن . فالشاعر يخون ذاته كل مرة غمس ريشةً في دواة وكتب ، وكل مرة ألقى بين يدي القارئين العاديين اشعاره . فرب كلمة له او حرف او نقطة ظنّ انه يشجنها احساسه ويرّ عليها القارئ الوثني ولا يتوقف . الشاعر وحده يستطيع ان يقرأ اشعاره ولا يخون ذاته ولا الاخرين . فهمت الان معنى عبارة كتبتها شاعرةٌ شرقية الى الذي اهدته واحدةً من قصائدها الصوفيّة ، وتلك العبارة الفرنسية لن اترجمها لعجزي عن ذلك . لقد قالت :

« Surtout, ne lisez pas : il
s'agit d'une pénétration. »

هذا الاندماج بنفس الشاعر ان يستطيعه احد ، ولا الشاعر ذاته يستطيع

ذلك تماماً ، لا يستطيع ان يندمج مع ذاته بعد ساعة الالهام ، لان النفس نهر سابح لا تغتسل بياهه ذاتها مرتين كما قال « هراكليت » (Héraclite) أو كما تأوهت تلك الشاعرة الفرنسية الحساسة ده نويل (Comtesse de Noailles)

« Nous n'aurons jamais plus notre âme de ce soir » (1)

لو ادرك كلُّ شيء في الوجود ان هذا الاحساس ، ان هذا الإلهام هو في هرب مستمر امام الشاعر الراكض وراءه لكي يستجمعه ، لتوقف كلّ شيء في الوجود عن الصخب والضجيج ساجداً لدى مرور النعمة في الارض ، موقّراً للشاعر كل القوى لاستجماع تلك النعمة — لو الزهور أدركت ذلك لوقفت عن التنفس ونشر العطور إجلالاً ، ولخشع الطائر فوق الغصن ، ولصمت العالم فترة ، وانها لفترة صمت يوسعها ان تخلّص العالم ، لأن واحداً من العالم ، هو الشاعر ، يقتبل في تلك الفترة الصامتة نعمة الإلهام أي روح الله !...

ولكن الإلهام لن يتجمع في حروف ، ولن يتجسد في كلمات ، والّا لاصبح الشاعر الهاً ، اذ ان الله وحده استطاع ان يلفظ كلمة ذاته ، ان يقول ذاته : والكلمة صار جسداً وحلّ فينا ، كما يصلّي الملايين من الكاثوليكيين ثلاثاً في النهار .

وما كان فوزي معلوف سوى واحد من الشعراء الذين حاولوا تجسيم احلامهم في كلمات ، فقتلتهم المحاولة — وتلك هي الشهوة الكبرى التي ما برحت تعتاج في قلب الانسان ، شهوة الى التلفظ بما لا يُقال ، شهوة الى اللامحدود تتطاول حتى الله ثم تنكفئ في تعبير نحو المحدود ، نحو الانسان . فماذا بالنتيجة وجيعة ، واذا في نفوسنا تلك المطامع المتكالبة المتطاحنة كانها تلك الآلهات الاغريقية التي لا تشبع ، تلك المطامع المتداخلة المتكاتفة والمتفارقة المتلاطمة ومسرحها النفس الانسانية المجرحة . فنفوسنا هي دوماً ساحة عراك وهي عدوة وحليفة لذاتها في الوقت الواحد . تنهب العلاء صعداً تارةً ، وتشد نحو الثرى احياناً ، ولكنها لا تقنع ابداً عن ذاتها ولا ترتضي لها مقرّاً الا حيث لا تستطيع ان تبني مقرّاً وتسكنه . محاولتها الاولى والاخيرة هي الوصول الى اقصى ذاتها .

(١) Le Cœur Innombrable

لقد قال نيتشه (Nietzsche) : « انا عليّ ان اتخطى دائمًا انا . » فيردد صداه الفيلسوف الوجودي المعاصر غبريل مرسل (Gabriel Marcel) فيقول : « شعاري ليس : انا ، بل فوق انا » . هذه هي قصة القلق الوحيدة ، قصة الشهوة الانسانية الاولى التي تمتست مقاطعها شقاء الانسان عند بزوغ الدهر ساعة ارادت حوّا ان تتخطى حدود ذاتها لتساوي الله بالمعرفة والمقام . وكان الفشل الاول الذي لا يبرح كل مخلوق جديد يختبره من جديد . . .

ان حلم فوزي معلوف كان حلم الانسان ، ولم يُكتب على حقيقته . « على بساط الريح » كانت اثرًا هزيلًا لملحمة اخرى مـا استطاع شاعر الطيّارة كتابتها بحروف مادية وعنوانها : « على بساط الروح » ، والروح خلف الكلمات والحروف . . .

فاجعة الانسان تبدأ حين يبدأ بالتساؤل ، بالتكلم مع نفسه والاصغاء اليها ، حين يبدأ يعرف ان هنالك عالمًا اكبر من عالمه الضيّق . عند ذاك يبدأ القلق ، لان الانسان يشعر بان عليه ان يستقر في ذلك العالم الكبير الوسيع ولا يستطيع الى الاستقرار فيه سبيلًا ولا عنه تعبيرًا .

كذا كان فوزي معلوف : عاش طموحًا الى عالمه الكبير ، وقلقًا عن عجز ، ثم ابتعادًا عن الطموح والقلق الى حيث تجتمع النفوس باشواقها الحيّارة وتهدأ من اضطرابها — شاعر مات والشمس في المطلع وامامها الآفاق تناديها الدوران — مات وزهر الربيع واخضرار وروده تقول للشباب ان يفتحوا نوافذ قلوبهم لطيور الاحلام . ولكنه كان كتلك الزهيرات التي تلوي عنقها الساحر عند الصباح لتموت ، وكالشمرة تهوي الى الثرى قبل رفيقاتها مثقلة بالذائذ الناضجات — ومن يستطيع ان يعلم ايّ عذاب تقاسيه الشمرة الاولى لتنضج ؟ وصمتها الطويل القابل هل هو غير وجع اخرس يضنيها لأنها تحاول ان تتجسد غناء . وبقدر ما يطول صمتها وعذابها تكون لذتها وعندما تبلغ اقصى امنيتها تموت . من يستطيع ان يعلم اي ألم مبرّح تعانيه العصفورة كي تقدر على البوح بالنغم ؟ وبقدر ما يطول ألمها تطيب انغامها للسامعين . ومتى باحت باجمل نغم تطوي جناحيها وتصمت في ضجعة الموت . كل شيء في الوجود يحاول

هذا التخطي، ويشعر بهذا العجز الشامل ، وإلا لما معنى دورة الافلاك وهمسات الليل ، وأنات اعماق الاودية الحالمة بقمم الجبال ؟

كل شيء في الوجود قلقٌ ونحن اكثر ما في الوجود — وشوقٌ الى ابعد . أترى كان ارسطو الفيلسوف الاول يريد ان يعبّر عن هذا حين تكلم عن الافلاك المتحركة شوقاً الى المحرك الاول ، الى الله ؟ لا شك في ان القديس اغوسطينوس كان اوضح معنى واعمق اختباراً حين هتف من قلبه في اول الاعترافات : « خلقتنا لك يا الله وسيظل قلبنا قلقاً حتى يستقر فيك » .

*

بعد ان اوحى الله بانه جوهر مثلث ، كل شيء يبدو لي مثلثاً في جوهره الواحد .

تساؤلٌ فقلقٌ فإخفاق ، هكذا تبدو الحياة : تساؤل عما وراء حدود النفس والكون ، قلق في البحث عن حقيقة ثابتة ، إخفاق في معرفة تلك الحقيقة كاملةً وفي التطوع الكامل لاجل متطلباتها . فاذا الانسان واحد من ثلاثة : انسان يولد ويموت في قلق واضطراب ، انسان ينطوي على إخفاق وتشاؤم . ومن الناس الافراد القلائل ممن تجمعت فيهم هذه المراحل الثلاث فكانوا عظماء الانسانية لانهم اختبروا كل ما تستطيعه الانسانية من اختبار فاذا بهم حين يتكلمون عن ذاتهم يجتمعون مع كل شخص في بقعةٍ من بقاعه الداخلية . من هؤلاء كان فوزي معلوف ، من تلك النفوس الساهرة التي كانت لا تستطيع الغفوة اذا الناس ناموا لان ارقها شوق الى اللامحدود ، من تلك النفوس التي تكلم عنها شوبنهور (Shopenhauer) حين تكلم عن ذاته قائلا : « يُقلقني أن لا يكون شيء يقلقني » . وهذا الأرق وهذا القلق المسيطران على نفس الشاعر هما معنى لكل ما في الوجود من نقص وحرمان . فاولا غصة في نفسه لما أنّت الرياح وانتحب الشجر ، ولما وقف دمع على ضفة جفن او الثوى فانكسر امامه في هدب عاصفة ، ولولا كؤوس حبه المتحطمة لما التمعت النجوم كالشظايا الدامعة ، ولولا خفقة الشوق في قلبه لما اغرورقت عينا الزهرة بالدموع ولما تشاكت عصفورتان مشتاقتان :

« ما بين الريح غير زفير نزعته الرياح من رئتيه
وسواد الطيور غير عويل نفثته الطيور عن اصغريه
وبريق النجوم غير شظايا كاس حب تحطمت في يديه » (١)

بارك الله رفات ارسطو القائل : « ان النفس البشرية تستطيع ان تكون كل شيء . » ولكان اصدق لو قال : النفس البشرية هي كل شيء . تنظر الى الوجود فيحيا الوجود في نظرتها مستعيراً له منها لوناً ، وهذا اللون منتحب الخطوط كل ساعة : اذ ان النفس في قرارتها حزينة مجهشة ، محمرة الخدود ، فاعماقها مخيفة ، كلما وقف الانسان على شاطئها استقلّ به الدوار ، لان لا شاطئ ولا اعماق لها .

على ذلك الشاطئ القصيّ ، فوق تلك الاعماق اللامتناهية ، وقف فوزي معلوف يتسمع الى اصداء اللجة المتجاوبات التي كانت تناديه الى الغوص والرحيل وما هي لجةٌ في اسفل ، بل هي هوّةٌ في علاء :

« غربةٌ في العلاء ما برح الانسان فيها يغالب المستحيلا . » (٢)

لقد غالب شاعر الطيارة المستحيل فصرعه المستحيل وهوى على الارض بعد نشوة الغربة في العلاء ، فاذا هو محطوم الحلم ، مهيض الجناح ...

نازل

انفتحت عينا فوزي على الكون ، فاذا الكون خرافة يتغنى بها الانسان واذا الحياة ارجوحة تهزها يد الابدية ، ويوقع الحانها الموت امام سرير الانسانية . الموت هو تلك المعجزة التي ما استطاع فك رموزها حين ساءل ذاته عنها : « الموت ! الموت ! كلمة رهيبة مكتوبة في كل مكان : على اديم الغمام ، على صفحة الارض ، على متن الرياح ، على كم الزهرة ، على جذع الارزة ، على جبهة الانسان ! » هذا ما كتبه الشاعر وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وسيكتب بعد ست سنوات :

« ... قف يا موت واشفق على قلبي ودعه مرةً يخفق

---

١) على بساط الريح
٢) سعيد عقل : قدموس

دعْ مقلتي تبكي قبيل النوى ، تبكي على الورد ، على الزنبقِ
تبكي على روض غرامٍ ذوى ما فيه من زاهٍ ومن رونقِ ...»

وبقدر ما يثبت خطوته في الحياة ، تتشابك الاسئلة المزعجة عن الموت في نفسه ولا يدرك لها حلًا :

«كيف جئنا الدنيا ؟ ومن اين جئنا ؟ وإلى اي عالمٍ سوف نُفضي ؟
هل حيينا قبل الوجود ؟ وهل نُبعث بعد الردى ؟ وفي اي ارضٍ ؟
هو كنه الحياة ما زال سرًا . . . . . »

وهكذا فقد اصطبغت كل اشعار فوزي معلوف بتشاؤم اسود يطاول اليأس، فاذا حياته كلها سؤال معقود على شفتيه كلما حاول الجواب عليه خانته الكلمات ؛ فشعره شهقة الى ما وراء الطبيعة او غصّة ميتافيزيقيّة كبت منها اكثر مما أسمع .

قلق الغربة

هذا التساؤل العميق عن كنه الحياة والموت ادّى بالشاعر الى قلق نفساني رجيع. فبعد ان خشي الموت بدأ يتطلبه ، لأنه اراد التحرر من القيود الترابية التي توثقه :

«والآن يا موت اليَّ اقترب يا مرحبًا بالموثق المنقذِ
منقذ نفسي من قيود الاسى ، موثق جسمي في المدى الضيقِ...
لم يبقَ لي في الارض من بغيةٍ ما الارض الا جثّة الاحمقِ...»

وما كانت رحلة فوزي معلوف على طيارة فوق سماء «كوباكابانا ـ ريو دجانيرو» الا العرض السطحي لرحلات عديدة قام بها على جناح خياله المديد نحو الموت . ما كانت رحلته في الجو غير ترجمة على الموت ، وصعود اليه ، لان الموت صعود ، صعود الحياة الى قمتها ؛ فموت الانسان ذروة حياته، وموت الثمرة نضوجها ، اكتمالها ، اختمارها . ولكن هناك حوائج ثقيلة تعيق الشاعر عن الصعود وتشد به نحو الارض ، وتلك الحوائج هي «المال» و«السيف» و«العلم» و«الناس» وكل ما في الوجود من هموم وعادات ومطامع متكالبة واهواء مقيّدة . اما هو فيريد الانفكاك من اغلال الحدود ، من كبول

التراب ليعيش حرًا ولذاك فقد زهد بكل ما يتعبّد له الناس . فالمال العزيز بين يديه يصبح تراباً اصفر ، والشهرة في نظره عبودية ، وليس يثبت غير الحرية، حرية الروح، بعد ان ينحل الذهب ويغيم الجمال وتُمحى الشهرة العابرة.

ولكن كيف يستطيع الصمود والتحرّر ما دامت الصعوبات تقف امامه في الجو كالصخور المسنونة الاطراف . فكان كلما علا تثاقل وبدت له المرحلة شاقة . فهاك النسور ، رمز القوى الغاشمة ، تتألب حوله تريد ان تمزّقه بمخالبها الحادّة :

« واذا بي ما بين اجنحة سود على الافق حجّبت وجه بدره
طوّقتني بكل فاغر شدق صامد لي بمخليه وظفره . . . »

ولكنه يتغلّب عليها اذ يستمد القوة من حلمه الكبير بالراحة الكبرى والانفلات من اغلال التراب :

« لا تخافي يا طير ما انا الّا شاعر تطرب الطيور لشعره
زارك اليوم متبلًا ينشد الراحة في هدأة السكون وسحره
فرَّ عن ارضه فرارك عنها من اذى اهلها وتنكيل دهره . . . »

وتتبع رحلته . الى اين ؟ الى حيث تقصد كل نفس يخزّ فيها القلق فلا تقنع بالوادي والسهل الموحش ، الى حيث يقصد كل انسان كبير الاشواق ، جبار الاماني ، الى قمة الموت حيث حاول الرواقيون (Stoïciens) ان يبنوا لهم معتصماً من الالم ، الى تلك النرفانا (Nirvana) التي تخيّلها بوذا للتخلص من براثن العذاب .

لقد داس العقبة الاولى ، عقبة الجهاد المضنك الذي تمثله النسور وعلا في الجو حتى دانى النجوم فذعرت منه اولًا ثم سخرت به وبجارلته العقيمة . هذه هي عقبة اليأس تستولي على كل قاصد امرًا عظيماً :

« هو تحت السدم أعجز عن ان يبلغ النجم فوق متن رياحه . . .
لا تخافي منه وخلّه يعلو فقريباً يهوي صريع كفاحه . . . »

على انه يعارك اليأس ويجتد كل ما لديه من قوى لكي يقطع هذه المرحلة الصعبة . ان لديه حلماً كبيرًا كم تلهّف في وجع وحرقة للوصول اليه واذا به

يخاطب النجمة بكلمات تشيع فيها عذوبة النجوم الزرقاء. الالوان مخبرًا اياها عن شوقه المزمن الذي كان يبثها اياه في الليالي الطويلة :

« ايه يا نجمتي ألم تعرفيني شاعرًا بتُّ الدجى لنواحه ؟
كم ليالٍ في الروض احييتها ابكي واشكو اليك بين اقاحه !
سامح الله فيكِ قلبًا نسيًا . . . . . »

ساحها وسار بعيدًا وراء مبيت الاشعة ، وراء مرقوب الظنون . هو وحده في ذلك القفر العريض يعاوده اليأس ويخال ان طموحه كان مغامرةً تكاثر فيها الوهم ، فيندب حظه ووحشته القاسية :

« نجمةَ الليل رحمةً ، فضلوعي
من شجوني
تتمزّق . . .
واذكريني بين الكواكب وادعي لي ، عسى يهتدي اليَّ السلامُ . . .
ليت شعري والليل يعقبه الفجر ، متى يعقب البكاءَ ابتسامُ ؟
ضاع عمري سيًا وراء رسوم خطّطتها في الشاطئ الاقدامُ . . . »

هذا التعب المهدّم صوّره لنا شاعر اخر اسمه سولي برودم (Sully Prudhomme) في قصيدته « Le Zénith » حيث وصف عراك النفس الطامحة الى العلاء والجسد الطالب الثرى مقرًا :

... L'éternelle dispute, agonie incessante :
La chair, au sol vouée, implore la descente,
L'esprit ailé lui crie un « Sursum » infini . . . »

أترى هل لذلك الاغتراب هدوء واستقرارٌ في واحة خضراء؟ أترى يحتمع بالحلم الذي خطّطت اقدامه رسومًا شواحب في الارض ؟ . . . ولكن ها قد بدا من بعيد « عالم الارواح » . . .

حفنةٌ من ترابٍ واهية تفرش فوق النجوم جناحين شدّدهما امل الالتقاء بالمجهول ، وتتصاعد حتى العالم العاقد الارواح بعضها ببعض مشدودةً بخيوط الحب التلّاب . والشاعر هو في كل آنٍ ذلك الجبار العنيد ، « نمرود » الذي صوّره لنا « ڤيكتور هيغو » ذاهبًا الى « اكتساح السماء » فها هي الارواح ترف حائمات بين يديه . هي آماله العظيمة الرحيبة التي تأوي بيتًا ما صنعته

كفٌ من التراب المضمحل ، وتبيت في جريرة الشعاعات البواسم ، هي آماله المجتحة كأنها النحل يطنّ في اذنيه :

ولما كاختلاج اجنحة النحل أزيزٌ يطنّ في أذنيّا . . .
فتنبّهت من ذهولي واصغيت لعلي اجلو هناك خفيًا
فسمعت الذي ترشوشه الارواح عني ، وما تفكر فيّا . . . »

وهنا يصغي الشاعر الى تمتمات الارواح وما تفكر في بني الانسان الذين يملأ قلبهم « فحيح الافاعي » و « ينهش الحسد نفوسهم » و « ينسون الخير ويوغلون في الشر » و « يدوسون الضمير » ويحكمون « الطمع » « والانانية » اولئك الذين « نطفهم اذى » و« ارضهم جحيم » و« علمهم هدم » و« عمرانهم خراب »[1] . ولكن الشاعر لا يشارك بني قومه بهمومهم السافلة ولا يقاسمهم المطامع الارضية ، بل هو يكفر عنهم ويهرق عمره ذوباناً كالشمع على الهيكل لكي يهدي الناس ؛ وهو فوق ذلك يسكن عالماً غير عالمه ولو خُيّر لما اختار غير ظلمة القبر :

« هو بالرغم عنه من عالم الارض تربًا بشكل ابناء جنسه
سكن الارض رغمًا وهو لو خُيّر ، ما اختار غير ظلمة رمسه . .
يتلاشى كالشمع — كي يعطي النور — على هيكل الخلود وقدسه . . . »

والتقى اخيرًا الشاعر بروحه ، بحلمه الكبير ، بعد ان هجر الارض فترة . . أترى ينعم باضواء النجوم وتمتماتها الشاردة غير الذين تخلصوا من اغلال الارض التي تقيد كل نفس عطشى الى النور ؟ أترى يلمح شملات الافاق المجبولة غير الذين قبلوا بان يودّعوا الشاطئ ويرحلوا الى بعيد البعيد المغلق ؟

وما هي غير دقائق معدودات اختلى فيها الشاعر بروحه ، دقائق ملأى بقبلات الشوق ترجع صداها عذارى الارواح من بعيد و « يسكب النسيم العليل فوق لظى انفاسهما ندى نقتاته » :

« اذا جلسنا على بساط من السحب يفوح الغرام من جنباته . . .
وعذارى الارواح تنشد من بُعدٍ بصوتٍ ، ألقُهُ في نبراته . . . »

---

١) على بساط الريح النشيد الحادي عشر .

إخفاق

وصحا الشاعر من سكرته فوجد ذاته على الارض « يكابد بعد حريته الرق والعبودية » . لقد كتب بعد ذلك « شعلة العذاب » تلك التي ألهبت قلبه وحوّلت اشواقه الى رماد . فاذا به يركع « في هيكل الذكرى » يستعيد المراحل التي قطعها ويندب ماضيه السعيد : . .

« ارجعي التهمري أيا ذكرياتي
ان قلبي
ذوى ومات
فانا عائش بماضي حياتي
فهو حبي
من الحياة . . .

« ليس فكري الا صحائف بيضاء عليها الذكرى تخط وتمحو . . .
طويت بسمة ليُنشر دمع وخبت جمرة ليلمع جرح . . . »

لقد « سقط على اشواك الحياة فجرحته » كما قال « الشاعر الملائكي » شلي (Shelley) :

« I fall upon the thorns af life ; i bleed »

ومن اجمل ان نستعيد كلمات سولي برودم من القصيدة ذاتها التي ذكرناها :

« Mais épuisée enfin, la chair plie et s'affaisse,
Et comme un feu sacré dont se meurt la prêtresse,
L'esprit abandonné s'abat évanoui . . . »

اما الشاعر فهو ذلك المخلوق المختار ، تلك الجبلة الوديعة ينحني فوقها الفنان الاكبر ، الله ، يجبلها ويكتلها حتى تصبح شبيهة به واهلا لأن ينقلها اليه . يموت الشعراء شباباً لانهم من جبلة طينية تلبي النامل الله فتجدل وتكمل بسرعة فائقة ، فيهوي التراب الى التراب وتتابع الروح رحلتها حتى الوصال الاخير . . .

لقد سكت فوزي معلوف ، وفي غابة من غابات لبنان كان طير سحري لم ينظره احد يصمت في ظل غصن ليتأمل بسكتة اخرى ابدية . . .

لقد سكت يتابع في الصمت حلمه ، بعد سكت ليعيد ويحس : انها سكتة الحمامة بعد انشودة في ايك دفي ، سكتة حلم عريس لرحلة راحل لا يقف ...

بعد ان أتمتنا صرخات انسان ، سكت ليسمع حديث الله . السكوت وحده يسمع اما الكلام فجافة وهذيذ محموم يتألم . .

كان كعصفورة اغتربت وعاودها الحنين الملح الى عشها البعيد فحطت قليلا على غصن رطيب واندفعت بانشودة شوق وغربة ثم رحلت تاركة في الجو رجع انغامها ...

كان كثيرة نضجت باكرا وانحنت بثقل نضوجها المعطي الرغاب — كذا اعطى فوزي الحياة اكثر مما اخذ منها وكل عظيم في الارض هو سخي .

اذا كانت حياته قصيرة ، فانها طويلة القصر ، واما بها الخلود يكسبها ما لا تقاس به الأعمار المحدودة . اما هو فكان ضحية شوقه الى اللامحدود . عظماء الدهر لهم تاريخ يتلمه تاريخ الدهر الفاني ، اما ضحايا الشوق للخلود فلهم حياة مشحونة بالخلود والبقاء ...

الشعر حضور

وانطوى بعد ذاك ولكنه ما برح حاضرا باقيا بيننا ، لأن الشوق القديم الذي أذهب حياته ما زال جديدا يُلهب جذور حياتنا . ونجتمع به كل مرة تُدر لنا ان نتفلت من هموم ترابنا وملاهيه الجوفاء لنجتمع بذاتنا وبأشواقنا الحقيقية ... الشعر عجنة البقاء ! ينطوي جناح الشاعر ويخمد ضرم الاحساس فيه ولكن سبب اضطرامه هو الباقي ، لانه هو هو في كل نفس في كل عصر في كل رقعة ارض .

ترى هل كان ازميل « فيدياس » الأكسائر الازاميل ، والرخام الذي بين يديه الا كسائر الرخام ؟ ومات « فيدياس » ومدت الايام يدها الطاحنة تضرب على تماثيله فتقطعها ، ولم يبق غير روح « فيدياس » الانسانية الشاملة تحاول ان تجسد شهوة لا حدود لها ، تحاول من حجر ان تصنع انساناً ، تحاول من

الفاني ان تبني البقاء . وها نحن بعد ثلاثة وعشرين جيلاً نلتقي به كل أصغينا الى نفوسنا التي تروي القصة الواحدة ، قصة كل النفوس ...

وريشة « ميكل انج » كانت ككل ريشة بين اصابع كل رسام ، وسقف كنيسة « السكستين » كان ككل سقف في كل كنيسة . ومات « ميكل انج » ووعت سوسة الزمان اذيال رسومه ، اما ما بقي فشهوة انسان ، دُعي عرضاً « ميكل انج » وكان يستطيع ان يُدعى غير ذلك ، شهوة انسان مثلنا يحاول ان يجتم بالالوان الاحساس الانساني اللامحدود الذي يضطرم في اعراق كل بشري طامع باكثر من بشريته ...

و« بياتريس » تلك الفتاة الساذجة النظرات كانت ككل صبايا فلورنسا وانفتح قلب « دانته » على سر حبها فاختلى بذاته يحاول ان يبدع « بياتريس » جمالاً لا غبرة قبع عليه . ومات « دانته » و« بياتريس » ، مات الجبان وبقية الجذوة المشتعلة ، الحب . ونحن لا نعجب « بدانته » الا بقدر ما نكتشف ذاتنا في شعره . وبقدر ما نستطيع الحب ، نستطيع فهم الشاعر . ولو استكمل الحب ذاته في كل النفوس ، لتعارفت كل النفوس وتحابت ، فجاء الملكوت وحضر الله الذي قال عنه يوحنا الحبيب « انه حب » . ولكن الحب لن يكمل الا بعد ان يمر بالموت فيتكرس ويصبح ابدياً . طالما نحن في الحياة والقلق وعدم الاستقرار نصيبنا الموجع وقسمتنا المبلبلة . ولذلك فني اعمق كياننا شهوة للكمال ، للاستقرار ، شهوة للموت . ولقد صدق دوهامل (Duhamel) حين قال : « دأبي على الانسان الذي لا يشتهي ان يموت . »

◆

العجز الانساني

والشاعر هو الذي يطلع في برهة مخلقة من الزمن على سر الحياة والموت والابدية ، وهو يمسي جريحاً كلما عاد من رحلته وحاول ان يستعيد مراحلها . الشاعر يقف على اسرار الكون مستعيناً بعقله وحسه ويحاول ان يعبر بكلمات فانية عن تلك الاسرار التي هي اعمق من العقل والحس . ويكون العجز دائماً نصيبه والفشل قسمة محاولته . يقول حروفاً ويتمتم مقاطع مبعثرة مضطربة

ولكن الحقيقة تبقى حبيسة الوادي النفساني الذي لا قرارة له . وما ذاك الا لأن قصة الانسان الحقيقية لن تُعلن واذا بعض الشعراء وقد امتهم هذا العجز يقلعون عن الكلمات العادية الفاشلة ويريدون خلق جو من اجوا. احاسيسهم الكبير ، فذا الكلمات لا معنى لها واذا الجوّ يتلون بموسيقى حروفهم : فهنالك لفظةٌ او حرفٌ او وقفةٌ على شاطئ قافية اوتنفّسٌ على منعطف شطر ، او نظرةٌ صامتةٌ الى نقط ثلاث ، تزدحم فيها الاسرار التي لا يُباح بها : هؤلا. الشعرا. هم السورياليون (Surréalistes)

وهذا العجز ما هو الا نتيجة متطلبات الالوهة في النفس البشرية وقد يؤدي الى سأم ويأس ولقد اختبر كثير من الفنانين هذا العجز عن ادا. الاصوات التي تصغي اليها مسامعهم الداخلية ، تلك الاصوات التي لا ترتسم بصورة ولا تتميّز باون. أما قال «سوزو» (Suso) ذلك المتصوف الالماني العميق الفؤاد : « أنّى لي أن اعطي رسماً لما ليس له رسم ؟ فما من تشبيه او مقابلة تساعفني في ذلك».

ومنهم من آثر السكوت العنيد على الكلام المجدّف على قدسية النفس واشواقها القاصية . فبعد ان حاول « رمبو » (Rimbaud) التعبير عن جوع روحه المذيب نطق بهذه العبارة الملأى بالعبارات التي ما استطاع التلفظ بها : « انا افهم واحس ، ولاني لا استطيع ان اعبّر عن احاسيسي بغير الكلمات الوثنية ، ارغب في السكوت ». ولقد سكت حقيقةً على وجع هائل وغصة جبارة وكبريا. ذليلة ...

وهناك من انتحر لانه عجز عن التفوّه بالكلمة العظمى التي حُملتها نفسه الكبيرة . وما انتحار « رينه كروفيل » (René Crevel) الا نتيجة المأساة الداخلية التي لا تُقال . فبين صمت الشفاه ونداء النفوس تسع كلمات الشاعر الحُرسا. التي هي مجبولة من صمت وتمتمة، وصمتها اعمق وابعد غورا من تمتمتها.

فيما حاول الانسان ، لن يستطيع ان يقول كلمته ، ان يلفظ ذاته . فما استطاع ذلك غير الله القائل : « انا هو الذي هو ».

وما كلمات الشاعر الّا الصدى الضعيف ، الا الرجع الهزيل الذي يكاد لا يُسمع ، للكلمة التي ناداه بها الله منذ الازل ليستفيق على الحياة. وما حسّ

الشاعر الا شيء مما شعر به يوم مدّ الله ابهامه الى التراب العديم الاحساس لينفضه من كثافة العدم. وما شوق الشاعر الى اللانهاية غير اثر للشعلة التي في مطلع الزمن، تركها الله حين نفخ في الطين والماء. ولا يزال يبحث عن تلك الكلمة الآتية من الاعماق الانسانية، ويفتش عن ذلك الاصبع الالهي وعن تلك النفخة الخالقة، حتى يجدها وتكون العبادة التي لا تنقضي في ابدٍ مشبعٍ ومغموسٍ بالصمت المترنم، لانه ملئ بالله ... هكذا كانت نهاية فوزي معلوف، ففي ذمة الله يا ابن لبنان!

* * *

حلم اخير

تراودني في بعض الغفوات اشباح من الشرق ما عرفتها الا قطعاً هزيلةً في اثارٍ تركوها على ورقات باليات.

كان ذلك سنة ١٩٤٤، في ليلة مقمرة من ليالي الصيف، في قريةٍ نائيةٍ من قرى الجبل مستلقيةٍ على جوانب مثلثٍ اخضر. غفوت وفي اعماق النفس تتجاوب اصداء «عـلى بساط الريح» فحلمت اني في «قصر الحمراء» في الاندلس اقطف وردةً بيضاء مشمشعة البتلات واغرسها على قبرٍ ابيض الطلاء. لأني بأمنيةٍ باح بها فوزي معلوف لصديقه الشاعر «فرنسيسكو فيلاسباسا». وأزعج البيـاض المهفهف عينيّ ففتحتهما واذا بي على سريري والقمر الحيران يتأمل بين اشعة بيضاء باردة، وفي البعيد من الافق غيومٌ شاردات كأنها نعاج ترعى او مراكب فينيقية ترجع «الى البلد الوادع الاسمر» محمولةً على موجات بحرٍ عريض. لقد أجفل حلمي بعيداً وكم كنت اودّ لو طال لانعم به. فذكرت اذاك قول الشاعر ذاته:

«يا لها فرصةً مضيعـةً سنحت مرةً ولم تعـدِ
كنت فيهـا قرب السعادة لو شئت طوّقت جيدهـا بيدي
كنت كالطير عند ساقيةٍ آنهـا ظامئاً ولم يردِ ...»

ورب حلمٍ يبخل الواقع بمثله — اجمل ما فينا نحن ابناء الشرق هي الاحلام واشنع ما فينا هو الواقع. ولا بدّ من يومٍ آخرٍ يجتمع فيه واقعنا بحلمنا، عند ذاك نصبح مستحقين نعمةً اخرى كفوزي.

أعطنا ان نستحق عطاياك يا ربّ!..

ارق نفس . . .

نظم ميشال حايك

انه « الشعر الروحاني » المطلّ من شرفة المستقبل علينا . . . بين الراقم الشتيم الغاري وبين العلم الجميل المزيّ ، توجد نفس الشاعر الفنية ، المضطربة ، التي لا تثار ، تريد ان تتفلّت من الراقم لتجتمع على مائدة العلم بالجمال الذي فيه تتعارف وتتحاب ظل الارواح ، ولكن قيوداً من تراب تكبّلها فتسمو على حنين مستمر ، تبقى كل يوم على جديداً تأوي اليه ولكنه ينهار سريعاً ويبقى الالم القاسي . . . وهذه ثلاثة مظاهر من هذا القلق النفساني يقدّمها شاعر . . . « المشرق »

أوصدتُ نافذة الافق ، خبا نور الليالي !
انتِ في هذا الدجى تسعين في إثر المحالِ ،
ظبيةً شاردةً بين غاريب الجبالِ
فارجعي ! ما أوحش الكون بدونك يا ! تعالي !

انتِ يا نفسي حنينٌ ليس تفنيه الليالي
إثرَ مجهولٍ خفيٍّ دقَّ عن رمي الخيالِ
فاستقري ، ان ما تبغينه دون المنالِ . . .
هدّم الشوق حياتك فاسعي في هزالِ

هل تجسّدتِ ؟ فكفّي لمست جسماً ترابي
أترى جسمك هذا ، ام ترى جسم السحابِ ؟
هل تُرى عينكِ هاتان بحورٌ من ضبابِ
تحت شعرٍ لونُهُ لونُ ظلامٍ وعذابِ ؟ . . .

كيف أزمعتِ على هجر الثرى والارتحالِ ؟
ملّ دنياكِ الاماني ومواعيد الوصالِ . . .
كيف تضحين وفجر العمر يغدو في التلالِ ؟
هل سئمتِ الارض واشتقتِ الى غير جمالِ ؟

مهلاً انتِ استفاقتِ ، قبل ميلاد الزمانِ
من منام الحب ، في جسمٍ ترابيٍّ هوانِ ،
لم يزل فيك بقايا بعدُ ، يا بنتَ الاوانِ ،
من عذارى الجنة الاولى وفردوس الحسانِ . . .

أي حلم بين عينيك غريب ؟ . .
سفاتات الرواني والخلخالات تدوي !
انت كالصخر لمادا لا ترقين لمؤلي ؟
انظريني ساجدًا عفرت وجهي في الرمال . . .

هل ترى أقضي حياتي كلها إلمّ الطلام
ساهرًا قربك في الليلة مفقود الكلام
خفقة منك لها ألف دوي في عظامي !
يا م كل الناس في الارض ، لماذا لم تنامي ؟ . . .

الحلم البعيد

هل يا ترى أنا يحيى الغدُ ، ذاك الخيال المرتجى الأبعدُ ،
تفاتُ من كفي المنى يا تُرى وتجفل الاحلام والوعدُ ؟
يا غم ، يا ثكلى أشهقي ان ذوى حلمي غدًا ، وولولي يا يدُ !
ويا فراشات كمالى أرحلي ؟ قد عاض ذاك المنق الأغيدُ
وجفّ ثغرٌ فوق الحبابه كان تراميكِ وكان الندد . . .

لا ! حلّقي اقضي حياتي على شرفة احلامي ، هنا أسعدُ ،
– انسى مواعيد المنى موعدٌ منتظرٌ يغدو ويستبعدُ –
حتى اذا الليل انطوى وانحنتْ نجمة امسي في الضحى ، إرقدي . . .

خلف خيرات الدراري لمن يا ليل ؟ – يا غيبوبةً تخلدُ
هل من مقرٍّ بين اظلالها لا امسِ لي فيه ولا لي غد ! . . .

نجوى

اسمعي !
من حشا الصمت واعماق السكونْ
تتعالى همساتْ . . .
أتراها شهقةٌ من اضلعي
تستقي في الليل غصّات المنونْ ؟
ام تراها كلماتْ

من هوى ، باح جنّ العاشقون
حملتها النسمات
شهرةَ الليل فخالتها جنون ؟
ام صدى الشواقنا والادمع ؟
ام نمي ؟

*

اسهري !
قد تكون الآن عبر الافقِ
مقلةٌ شدّت الى
مقلتينا بحبال النظرِ !
انما مثلة انسانٍ شقي
مثلنا ، يمشي على
عبرةٍ مزمنةٍ في الحدقِ !
خفّفي عنه البلا
ولنسامره بليل الأرقِ !
لتنمْ كل عيون البشرِ
فاسهري !

*

احملي
جسمي العالقَ في غلّ الوجودْ ،
في قيودٍ من ترابْ ،
حيث يبكي ذلك الجفن الليلي
من هموم الأرض ، من سجن الحدودْ !
لي اخٌ رهن العذاب
(واخي كل شقيٍّ ووحيدْ)
فاحمليني لا اريدْ ،
هالما في الأرض انسانٌ مُصابْ ،
ان انامَ الليلَ ملءَ المقلِ !
لستُ لي ! . . .